الخوارج والشيعة–

أدّى تنوّع المجتمع الإسلامي وما طرأ عليه من تغيير إبّان فترة الخلافة الرّاشدة، وخصوصا في زمن خلافة عثمان بن عفّان رضي الله عنه، حين كثُر الموالي، ومات كبار الصّحابة والقرّاء، وظهر جيل أبناء الصّحابة والموالي وأبناءهم، وتفرّق الصّحابة في الأقطار إلى تشكّل كُتل مجتمعيّة مُعارضة جديدة لها رأي في السياسية، وهي الكُتل التي بدأت تلعبُ دورا بارزا في أواخر خلافة عثمان بن عفّان وما أعقب تلك الفترة من حوادث. وبطبيعة الحال فإنّ السياسة كثيرا ما تأخذ من الدّين ما يُناسبها في مجتمع مؤمن يملك حماسة دينيّة متوقّدة، لذلك ظهرت فرقٌ وجماعات تبنّت إيديولوجية معيّنة قصد تبرير مواقفها السياسية، وأبرز وأهم هذه الفرق و الجماعات هي فرقتي الخوارج والشّيعة.

أ– الخوارج:

يقول الشهرستاني أنّ الخوارج هم كلّ فرقة خرجت على الإمام الحق، دون أن يفصّل في نوع هذا الإمام ولا في كيفية الخروج. غير أنّ لفظ الخوارج تاريخيا يعني تلك الفرقة التي خرجت على عليّ رضي الله عنه عقب موقعة صفين.

والخوارج هم أوّل فرقة فارقت جماعة المسلمين، وتسمّى أوائلهم بالمحكّمة الأولى، وكان غالبيتهم من الأعراب، ذوي فطر سليمة، أصاب الإسلام شغاف قلوبهم مع سذاجة في التفكير وضيق في التصور، فتكون من مجموع ذلك نفوس مؤمنة متعصبة لضيق نطاق العقول، ومتهورة ومندفعة، نابعة من الصحراء، وزاهدة لأنها لم تجد ترفا من العيش، كانوا يحسدون قريشا على استيلائهم على الخلافة، واستبدادهم بها، وكان غالبية الخوارج من العرب، ولم يكن معهم من الموالي إلا النزر اليسير.

– صفات الخوارج:

كان غالبية أتباع المذهب الخارجي من سكّان البوادي والأعراب وقليلٌ منهم فقط من عرب القرى، ممّن يعشقُون الحرية ويتقيّدون بقوانين وصفات البادية حجميلها وذميمها، فهم أهل نخوة وكرم ووفاء وبأس شديد، وهم أشد تمسكا بعقائدهم وحماسة في الدفاع عنها، لكنّهم أبعد النّاس عن الغوص في مقاصد الشريعة وعللها، ومرامي الألفاظ ومناطاتها، بل يتشبّثون بظواهر النُّصوص وألفاظها، ويزهدون في الدّنيا وبهرجها، ويُقبلون على الموت في سبيل الله، يقومون الليل ويصومون النّهار. إذا فمقالة الخوارج كانت بدويّةَ النّشأة ثمّ هذّبها التمدّن والحوادث المتعاقبة.

ومن خير الأمثلة على سذاجة الخوارج وقصور عقولهم أنّهم حين وصل إليهم عبد الله بن عباس ليناظرهم رأى منهم جباها قرحة لطول السجود، وأيديا كثفنات الإبل وعليهم قمص مرحضة أي أنّهم أصحاب عبادة وقيام ليل، لكنّه بمجرّد مناقشتهم عاد أكثرهم إلى رشده وتاب عن غيّه.

- **أهمّ فروع الخوارج:**

1– المحكمة الأولى:

ظهرت جماعة المحكّمة الأولى وهي أمّ الفِرق الخارجية عقب موقعة صفّين، فبينما كان معسكر علي يتأهب لحسم الأمور لصالحه، تمكن معاوية بن أبي سفيان ومن شايعه من الشاميين من إعمال الحيلة، فيما عرف بحادثة رفع المصاحف، وبذلك امتنعت فرقة من جيش علي عن القتال، وطالبت عليا بأن يحتكم إلى كتاب الله.

وعبثا حاول علي رضي الله عنهم أن يعيدهم إلى القتال، وفي الأخير وبعد إلحاحٍ منهم قبل أن يتفاوض مع معاوية بن أبي سفيان ومعسكر الشام، ثمّ ندم الخوارج وطالبوا من عليّ أن يستأنف القتال لكنّه رفض لأنّه توافق مع أهل الشام على الصّلح. وأسفر التحكيم عن عزل أبي موسى الأشعري لعلي رضي الله عنه، وتثبيت عمرو بن العاص لمعاوية بن أبي سفيان، وهو ما رفضه علي رضي الله عنه وجميع من شايعه، لكنّ الذين أرغموه على قبول التحكيم، أظهروا ندمهم الشديد على قبولهم التحكيم، ثمّ اعتبروا ما وقعوا فيه ذنبا، بل كفرا وتحكيما للرجال بمعنى أنّهم حكموا بغير ما أنزل الله، ومن لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر، لذلك طالبوا عليا بالتوبة من الكفر، ومراجعة إيمانه، وبدأوا يطعنون فيه، وبذلك ظهرت فرقة الخوارج المحكمة التي صارت ترفع شعار "لا حكم إلا لله" وهو الشعار الذي قال عنه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه "كلمةُ حقّ أريد بها باطل".

وحاول عليٌ رضي الله عنه أن يثنيهم عن هذا الغلو، فأرسل إليهم عبد الله ابن عباس رضي الله عنه، وبذلك رجع كثيرٌ منهم بعد أن أقام عليهم الحجّة، لكنّ جماعة ليست بالقليلة ظلّت تتشبث بعقيدتها، وصاروا يجهرون بتكفير علي وتضليله واعتزلوا معسكره، إلى أن خرجوا على المسلمين وقتلوا عبد الله بن خبّاب بن الأرت الصّحابي الجليل وذبحوه هو وزوجه وبقروا بطنها، فانتصب عليٌ لقتالهم في موقعة النهروان وتمكّن من هزيمتهم.

وبعد هذه الهزيمة قام عبد الرحمن بن ملجم المرادي المذحجي بقتل الإمام علي غيلة في المسجد.

وانتهى أمر المحكمة الأولى عقب عام الجماعة، وما أعقبه من محاربة زياد بن أبيه وعبيد الله بن زياد للخوارج، وتنكيله بهم، لذلك احتمى كلّ متحمّس لآرائهم بقبيلته أو تستّر بمعتقده.

- آراءهم:

- الخليفة لا يكون إلا بانتخاب حر صحيح، يقوم به عامة المسلمين، لا فريق منهم، ويستمر خليفة مادام قائما بالعدل مقيما للشرع، مبتعدا عن الخطأ والزيغ، فإن حاد وجب عزله أو قتله.
- الخلافة ليست خاصّة بقريش كما يقول غيرهم، وليست لعربي دون أعجمي، والجميع فيها سواء، بل يفضلون أن يكون الخليفة غير قرشي ليسهل عزله أو قتله إن خالف الشرع، إذ لا تكون له عصبية تحميه ولا عشيرة تؤويه، ولذلك أمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي وسموه أمير المؤمنين وهو ليس بقرشي.

تكفير أهل الذنوب، ولم يفرقوا بين ذنب وذنب، بل عتبروا الخطأ في الرأي ذنبا، إذا أدى إلى مخالفة وجه الصواب في نظرهم، ولذا كفروا عليا رضي الله عنه بالتحكيم، مع أنه لم يقدم عليه مختارا

ب- الشّيعة:

يدلّ لفظ الشيعة من حيث اللغة على المشايعة والمناصرة والمؤازرة، وكانت عقبَ مقتل عثمان بن عفان تعني أنصار علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ممن رأوا أنّه الخليفة بعد عثمان بن عفان، وأنّ المنازعين له بُغاة.

وقد بدأت بوادر الغلو تظهر منذ خلافة علي رضي الله عنه، فظهرت الفرقة السبئية من أتباع عبد الله بن سبأ اليهودي، الذي يُعرف أيضا بابن السّوداء، وقد وصل الأمر بأتباعه إلى القول أنّ عليا هو وصيّ رسول الله، ثمّ الإدّعاء بحلول الله عزّ وجل بجسده والعياذ بالله.

وباستثناء السبئية، ظلّ أنصار عليّ رضي الله عنه معتدلون في عقيدتهم، فتشيعهم لا يعدوا أن يكون اختيارا سياسيا، مبناه على حب علي رضي الله عنه وآل بيت النبي صلى الله عليه وسلّم، واعتقاد أنّه على الحق.

لكنّ الخوارج تمكّنوا من قتل علي رضي الله عنه غيلة وغدرا، وانتصب للخلافة ابنه الحسن الذي باشر قتال معسكر الشام، ثم جنح إلى السلم، ورأى ضرورة حسم الخلاف وتوحيد المسلمين، وتنازل الحسن بن علي رضي الله عنه عن الخلافة لصالح معاوية بن أبي سفيان، وبذلك التئمت جراح الأمة الإسلامية، ونهضت تواصل فتوحها مشرقا ومغربا.

وقبيل وفاة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، قام بتوريث الخلافة لابنه يزيد، خصوصا وأنّ الحسين بن علي رضي الله عنه مات في خلافة معاوية بن أبي سفيان، وكان هذا العمل مخالفا لروح الإسلام التي تقوم على الشورى، ويكتسي بنزعة كسروية تميل إلى التوريث والملك العضوض، لذلك رفض مسلمو الأمصار الأمر، خصوصا أهل الحجاز والعراق ومع ذلك بايع المسلمون ليزيد إلا نفر من الصحابة على رأسهم الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما.

وفور وفاة معاوية بن أبي سفيان وانتصاب ابنه يزيد بدأت الفتن تموج، وحركة العصيان تتسع، واعتصم أهل المدينة وطردوا والي يزيد بن معاوية، مما عجل بعقابهم وكانت موقعة الحرة التي هُتكت فيها حرمة المدينة ونُكّل بساكنتها وراح ضحيتها الكثير من الصحابة والتابعين.

ثمّ ازداد الأمر سوءا حين قُتل الحسين بن علي رضي الله عنه وبعض أبنائه، على يد عبيد الله بن زياد بن أبيه، وبذلك بدأت تظهر دعوات للانتقام من قتلته، وتزعم مختار الثقفي هذه الحملة، ومنذ ذلك الحين افترق الشيعة إلى طوائف، واستمرّ تفرقهم إلى جماعات كثيرة بتجدّد الحوادث وتوالي الهزّات ثمّ بدأ يظهر منهم القائلون بمقالات مناقضة للإسلام خصوصا وأنّ مذهب الشّيعة تسلّلت فيه جماعات وطوائف السمنيّة والبراهمة والمجوس واليهود وغيرهم من الأجناس والملل وهو ما جعل مذهب الشيعة يعرف جماعاتٍ من الغلاة مثل الإمامية والباطنية والإسماعيلية والنّصيرية والدّروز والتي بعضها فارق الإسلام بمقالاته الكفيرة المصادمة لنصوص الكتاب والسنّة.

وقوام هذا المذهب على ما يذكره ابن خلدون: أن الإمامة ليست من مصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة، ويتعين القائم فيها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبي إغفالها، وتفويضها إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوما عن الكبائر والصغائر.

ويتفق الشيعة على أن علي بن أبي طالب هو الخليفة المختار من النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه أفضل الصحابة رضي الله عنهم، وبدأت نشأة التشيع في مصر ثم انتقل إلى العراق واتخذته مستقرا ومقاما، بسبب استقرار علي رضي الله عنه بالكوفة، وأيضا بسبب تنكيل الأمويين بالعراقيين وكرههم لهم خصوصا أياد زياد بن أبيه وعبيد الله الله بن زياد والحجاج بن يوسف الثقفي.

- أهمّ فرق الشّيعة

1- السبئية:

أتباع عبد الله بن سبأ، وكان يهوديا من أهل الحيرة، أظهر الإسلام، وأمه أَمةٌ سوداء، لذلك يُلقّب بابن السّوداء، وهو من نشر أن عليا هو وصي محمد صلى الله ليه وسلم، وأنه خير الأوصياء، ثم تدرج إلى القول بألوهية علي رضي الله عنه، فقام علي رضي الله عنه بنفيه إلى المدائن، وبعد مقتل علي رضي الله عنه نشر ابن سبأ في أتباعه بأن عليا لم يقتل وأنه رفع إلى السماء، وإن الرعد صوته والبرق تبسمه، وقال برجعته، ومن السبئية من قال بالحلول .

2- الغرابية:

فرقة من الغلاة لم تؤله عليا، ولكنها كادت تفضله على النبي صلى الله عليه وسلم، فزعموا أن الرسالة كانت لعلي رضي الله عنه، ولكن جبريل أخطأ، وسميت بالغرابية لأنهم قالوا إنه يشبه النبي صلى الله عليه وسلم كما يشبه الغراب الغراب.

3- الكيسانية:

أتباع المختار بن عبيد الثقفي، وقد كان خارجيا ثم صار من الشيعة الذين يناصرون عليا، وسميت الكيسانية نسبة إلى كيسان، قيل إنه اسم المختار وقيل إنه مولى لعلي بن أبي طالب أو تلميذ لابنه (محمد بن الحنفية). ويقوم مذهب الكيساني على تقديس الإمام وطاعته طاعة مطلقة، والثقة فيه ثقة عمياء، ويقولون برجع الإمام، وهو في نظرهم بعد علي والحسن والحسين محمد بن الحنفية، وغالبيتهم يقولون أنه حي بجبل رضوى عنده عسل وماء ومن هؤلاء كثير عزة الشاعر الذي قال:

ألا إن الأئمة من قريش ولاة حق أربعة سواء

علي والثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاء

فسبط سبط إيمان وبر وسبط غيبته كربلاء

وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يتبعه اللواء

تغيب لا يرى عنهم زمانا برضوى عنده عسل وماء

ويعتقد الكيسانية بالبداء وهو أن الله سبحانه وتعالى يغير ما يريده تبعا لتغير علمه، وأنه يأمر بالشيء ثم يأمر بخلافه، وكان المختار يميل إلى القول لدعواه علم ما يحدث من الأحوال إما بوحي أو برسالة من قبل الإمام، وبعضهم يعتقد بتناسخ الأرواح.

4- الزيدية:

هذه الفرقة هي أقرب الشيعة إلى الجماعة الإسلامية، وأكثرها اعتدالا، وهي لم ترفع الأئمة إلى مرتبة النبوة أو إلى منزلة تقاربها بل اعتبروهم كسائر الناس، ولكنهم أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بفضل دينهم وقرابتهم. ولم يُكفِّروا أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخصوصا من بايعهم رضي الله عنه، واعترف بإمامتهم. وإمام هذه الفرقة زيد بن علي زين العابدين، وقد خرج على هشام بن عبد الملك بالكوفة فقتل وصلب.

وكان زيد رجل علم ودين، وتتلمذ عليه أبو حنيفة وواصل بن عطاء وغيرهم، وكان زيد فقيه متكلم، والزيدية لا يؤمنون بأن الإمام الذي أوصى به النبي صلى الله عليه وسلم قد عينه بالاسم والشخص، بل عرفه بالوصف، وإن الأوصاف التي عرفت تجعل الإمام عليا رضي الله عنه هو الإمام من بعده، لأن هذه الأوصاف لم تتحقق في أحد بمقدار تحققها فيه، وهذه الأوصاف توجد أن يكون هاشميا ورعا تقيا عالما سخيا يخرج داعية لنفسه، ومن بعد علي يشترط أن يكون فاطميا أي من ذرية فاطمة رضي الله عنها.

5- الإمامية: ((الاثناعشرية)):

يدخل في عمومها أكثر مذاهب الشيعة القائمة الآن في العالم الإسلامي في إيران والعراق وما وراءها من باكستان وغيرها من البلاد الإسلامية، ويدخل في عمومها

والإمامية فرق وطوائف كثيرة يقولون إن الأئمة لم يعرفوا بالوصف كما قال الإمام زيد بن علي بل عيّنوا بالشّخص، فعُيّن الإمام علي رضي الله عنه من طرف النبي صلى الله عليه وسلم، وهو يُعين من بعده بوصية من النبي صلى الله عليه وسلم، ويسمون بالأوصياء، فقد أجمع الإمامية على أن إمامة علي رضي الله عنه قد ثبتت بالنص عليه بالذات من النبي صلى الله عليه وسلم نصا ظاهرا، ويقينا صادقا، ويستدلون على ذلك بحديث: "من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه"، ومثل حديث " أقضاكم علي".

يرى الاثناعشرية أن الخلافة بعد الحسين لعلي زين العابدين ومن بعده لمحمد الباقر-أبي جعفر الصادق-موسى الكاظم-علي الرضا-محمد الجواد- علي الهادي-الحسن العسكري- محمد بن الحسن وهو الإمام الثاني عشر، ويعتقدون أنه دخل السرداب في دار أبيه بسُرّ من رأى —سامرّاء- ولم يعد بعد.

ويعتقد الاثني عشرية أنّ ما يقوله الأوصياء شرع إسلامي وهو تتميم للرسالة، وأن للأئمة تخصيص عموم النصوص وتقييد مطلقها والإمام معصومٌ عن الخطأ والنسيان والمعاصي، فهو طاهر مطهر، والإمام عندهم قد أحاط بكل شيء يتصل بالشريعة.

6- الإسماعيلية:

طائفة من الإمامية، وهي منتشرة في أقاليم متفرقة من البلاد الإسلامية، ومنهم الفاطميون خلفاء مصر والذين ظهرت دولتهم أولا ببلاد كتامة شرقي المغرب الأوسط (الجزائر) والقرامطة بالبحرين، وينتسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وهم يتفقون مع الاثني عشرية في الأئمة إلى جعفر الصادق، ومن بعد جعفر الصادق ابنه موسى

الكاظم أما الاسماعيلية فيقولون أن الإمام بعد جعفر الصادق هو ابنه إسماعيل، وقد قالوا إن ذلك كان بنص من أبيه جعفر ولكنه مات قبله، ومن إسماعيل إلى محمد المكتوم وهو أول الأئمة المكتومين، أو المستورين، فهم يقولون بجواز ستر الإمام ووجوب طاعته، ثم ابنه جعفر المصدق، وبعده ابنه عبد الله المهدي الذي ظهر في شمال إفريقيا وملك المغرب.

وقد نشأ المذهب في العراق، وفر معتنقوه بسبب الاضطهاد إلى ما وراء ذلك من الأقاليم كالهند والتركستان، وهنالك خالط مذهبهم بعض الآراء من عقائد الفرس القديمة والأفكار الهندية، حيث اتصلوا بالبراهمة الهنود والفلاسفة الإشراقيين والبوذيين وبقايا من كان عند الكلدان والفرس من عقائد وأفكار حول الروحانيات والكواكب والنجوم وغيرها.

وبسبب السرية التي أحاطوا بها أنفسهم انعزلوا عن جماهير الأمة، وبسبب الإمعان في الكتمان كتبوا مؤلفات دون ذكر أسمائهم مثل رسائل إخوان الصفا، وقد سموا بالباطنية لاستخفائهم عن الناس، ومنهم الحشاشون الذين ظهرت أعمالهم إبان الحروب الصليبية وإبان حرب التتار، وكانت جرائمهم في الغالب ضدّ الإسلام والمسلمين حتّى أنّ بعضهم حاول قتل صلاح الدّين الأيوبي وبعضهم كنصير الدّين الطّوسي وزير هولاكو ساند المغول وشجّعهم على قتل خليفة بني العباس وكان عين المغول الباصرة وعقلهم المدبّر.

ويقول الإسماعيلية أنّ للشّريعة باطنا وظاهرا، فالناس أصحاب ظواهر والأئمة يعلمون الباطن، ويقولون بالفيض الإلاهي من المعرفة التي يفيض الله به على الأئمة فيجعلهم بمقتضى إمامتهعم فوق الناس قدرا وفوق الناس علما، وجواز كون الإمام مستورا، وثالثا أن الإمام ليس مسئولا أمام أحد من الناس وليس لأحد من الناس أن يخطئه مهما يأت من أفعال، بل يجب عليهم أن يصدقوا أن كل ما يفعله خير لا شر فيه. وعن الإسماعيلية ظهرت جماعات الدروز والنصيرية والقرامطة الذين قتلوا الحجاج وسرقوا الحجر الأسود والحشاشين ثم الصفويين الذين تحالفوا مع البرتغاليين ضدّ الخلافة العثمانية.